سؤال الكينونة وتحولات الذات في شعر محمود درويش

The question of being and self-transformations in Mahmoud Darwish's poetry

ليلى تحري*

تاريخ الإرسال:2021/01/15.	تاريخ القبول:2021/06/05	تاريخ النشر: 2022/11/10

الملخص:

تسعى الورقة النقدية للخوض في غمار الأسئلة الوجودية التي شغلت الفلسفة والتي كانت محط اشتغال الشاعر درويش في نتاجه الأخير الذي انتقل فيه من سؤال الهوية الى سؤال الكينونة والبحث عنها في فضاء العدمية كمرحلة جديدة من مراحل ترميم الذات العربي وإعادة فتحها على منافذ الفكر الانطولوجي، وهي تسعى لإثارة الأسئلة المربكة في تاريخ الفكر الغربي و العربي على حد سواء.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الكينونة، الوجود، العدم، التحول.

Abstract:

The paper seeks to delve into the midst of the existential examples that occupied philosophy and which were the focus of the poet Darwish's work in his latest production in which he moved from the question of identity to the question of being and searching for it in the space of nihilism as a new stage of the stages of restoring the Arab self and reopening it to the outlets of ontological thought It seeks to raise complex questions in the history of Western and Arab thought.

***Key words*:** *identity, being, being, nothingness, transformation.*

*** *** ***

المؤلف المرسل :ليلى تحري tahrileila82@gmail.com

*جامعة الشاذلي بن جديد الطارف tahrileila82@gmail.com

1. مقدمة:

نشط الحديث عن الهوية في الفترة الأخيرة مما يؤشر على وجود نوع من الصدع الذي اجتاح الذات في رحلة بحثها لاستكشاف ذاتها، سؤال ما فتئ يتراكم في التجارب الإبداعية الحديثة التي شكلت لحظات انعطاف في تاريخ الإنسان.

ولعل الذي أدى لإثارة السؤال في الآونة الأخيرة هو ارتباطه بظاهرة العولمة التي تعمل على طمس الثوابت والخصوصيات العربية باسم الانفتاح، ولم يكن الشعر الدرويشي بمنأى عن هذه الحركة التي تخوض في مثل هذه الموضوعات الفكرية وتمثيل موضوعات ثقافية تسعى لتفكيك وتعرية الأنساق المتصلة بالهيمنة والتمركز، الهوية والغيرية، المركز والهامش، الوجود والعدم.

فهل فرضت المرحلة الأخيرة – ما بعد الحداثة سلطتها على المثقف العربي الذي بات يبحث عن الانخراط داخل منظومة الأنساق الفكرية الوجودية؟ وما الذي دفع الشاعر محمود درويش لصياغة سؤال الكينونة، هل هي محاولة للتصالح مع الواقع الذي يفرض تجاوز الحصار والانفلات من سلطة القيود؟

2. الاشتغال الفلسفي بسؤال الأنا/ الكينونة:

1.2 من الهوية الماهية إلى الهوية الوجود:

لئن تنوول موضوع الذات / الهوية من طرف الدراسات الفكرية المعاصرة الا أنه وقبل ذلك تنوول من طرف الفلاسفة فالمنطق الأفلاطوني والمنطق الأرسطي ينتصران لفكرة الماهية. ولئن كانت مسألة الهوية قد تنوولت من طرف المفكرين المعاصرين إلا أنها قبل ذلك قد أثيرت من طرف الفلاسفة فمثلت وما تزال موضوع التفكير الفلسفي الذي لا ينفك يستحضر الهوية حتى يظهر الاختلاف «فالهوية هي المسافة بين الذات وذاتها، وبينها وبين الأخر""[1] ورغم الميزة التي تنهض بها الهوية هي المساواة والتماثل مع النفس إلا أنها لا يمكن أن تكون دون وجود الآخر فلا وجود للمماثلة من دون المغايرة حسب ما ذهب إليه أفلاطون فالمنطق الأفلاطوني يقر بفكر الازدواجية الذي لا يقصي الاخر من دائرة الوجود.

أما عند أرسطو "**Aristotle** " تحدد الهوية على أنها الجوهر «وهذا الجوهر هو الوجود الثابت وهو موضوع الفلسفة، أما الوجود العرضي فلا يصح أن يكون موضوع علم لأن العوارض زائلة وغير ثابتة"[2]

إن الهوية عنده قائمة على المماثلة والثبات والتماهي مع الذات أي بقاء الذات هي هي مهما تغيرت الأحوال والظروف، فقد تم حصرها في ذلك الطابع الماهوي الذي يبعدها عن الحركة والتفاعل، وبالنظر إلى طبيعة الإنسان نجده يميل بالفطرة إلى التجديد والتغير وانطلاقا من التصورات المنفتحة للهوية قام الفلاسفة بتوجيه سهام النقد لفلاسفة الثبات التي انبنت تصوراتهم عن إيديولوجيا إقصاء الآخر وعدم الاعتراف بمنجزاته مؤسسين رؤاهم عن طريق الإقرار بمبدأي المماثلة والمغايرة فلا وجود للهوية من دون الغيرية، "فالذات هي دوما غير ذاتها ويستحيل عليها أن تكون ذاتها،وإنما هي دائما غير،أي صيرورة مطلقة، الشئ الواحد قابل لكل التحديات المتناقضة بفعل صيرورته"[3] ومنه يمكن التأكيد على أن الهوية هي اختلاف، ولما كانت كذلك كان البحث في إشكالية الثابت والمتحول في الهوية.

ومن نظرة الفلاسفة للهوية على أنها جوهر ثابت إلى الهوية الوجود مع الطرح الديكارتي "أنا أفكر أنا موجود" ولكن على الرغم من تساؤل ديكارت في الأنا: من أكون؟ إلا أنه لم يفلح في محاولة إزالة اللبس والغموض عن هذا الشيء المتساءل عنه. وبقي بدوره رهين الفكر الإغريقي في طرحه للهوية على أنها الماهية والجوهر.[4]

إن الوعي هو ما يمنح الإنسان هويته، ففي اللحظة التي ندرك فيها فكرنا فإننا ندرك أنانا (أنا هو أنا،"فالكوجيتو عملية لوعي متجه نحو وعي يتخذ من الوعي موضوعا له، والأنا تطرح وجودها من خلال فكرة الوعي والشعور"[5]

ومع كانط "Immanuel Kant" يخطو المفهوم خطوات كبيرة إلى الأمام حيث يستغني عن مفهوم الأنا ليحل محله مفهوم الشخص ويأخذ منطلقه عن مفهوم الشخص انطلاقا من العودة إلى الذات نفسها [من الذات وإلى الذات] باعتبار الذات هي موضوع

الذات نفسها "الأنا في التأمل الذاتي أي الخبرة الذاتية للذات العارفة التي تتجرد من موضوعات العالم الممكنة كلها وتحيل إلى ذاتها بوصفها موضوعا وحيدا" [6]

إن هوية الأنا تتأسس عند كانط "انطلاقا من الوحدة التواصلية بين الذات وذاتها في علاقة من التماهي، فما نعتبره الاخر المختلف في التصورات النقدية المعاصرة هو الآخر الذي ينوجد في الذات نفسها عند **كانط** لتغدو "الأنا هي هوية الوحدة الأصلية للوعي الترنسندنتالي"[7] ليتأسس التواصل ليس بين ذوات متعارضة وإنما بين ذوات متداخلة.

من الفيلسوف **كانط** "إلى الفيلسوف **مارتن هيدجر Martin Heidegger** الذي قدم تصورا جريئا عن الهوية من خلال البحث في الوجود، فإذا كانت الفلسفات الكلاسيكية ركزت دراساتها على الموجود / الإنسان، فإن **هيدجر** تخلى عن الطرح التقليدي ليبحث في الوجود/ الدازاين الذي ينوجد في الذات، وبذلك ينطلق السؤال الفلسفي عنده من ماهية الوجود، التساؤل في وجود الموجود هو ماشغل أساس التفكير عند الفيلسوف **هيدجر**.

لقد نقل **هيدجر** التفكير من التساؤل الأتي: ما هو الانسان إلى من هو الانسان، فمن هو؟ ليس سؤال هوية بقدر ما هو سؤال الوجود والبحث عنه في تلك العوالم المصمتة والمعدمة، فالأساس الذي تقوم عليه فلسفة **مارتن هيدجر** هو الوجود الذي يغلفه طابع التساؤل والقلق وهي الرؤية التي تصدر عنها المنحى الاخير لشعر **درويش**.

إن الإنسان هو كائن موجود في العالم كما توجد باقي الموجودات الأخرى لذلك فإن جوهر البحث ليس في الوجود الطبيعي للإنسان بقدر ما هو البحث في معنى الوجود، فالوجود يتحدد بالوجود مع الآخر في علاقة وجودية يطبعها التواصل، والوجود الآخر الذي يقصده **هيدجر** هو الوجود الذي يغلفه طابع القلق والتساؤل عن حقيقة الموجود في محاولة لتحديد الماهية الحقيقية، لتصبح تلك الكينونة المنسية التي انشغلت عنها الأبحاث هي مدار البحث والتفكير عند **هيدجر** الذي رحل وترك الجواب معلقا "فالإنسان لا يتهيأ له الاقتراب من حقيقة الوجود إلا انطلاقا من الوجود/ الدازاين* الذي يستطيع الإنسان الانخراط فيه " [8]

إذا كانت طبيعة الموجود هو الموجود بالعين والمنكشف للعيان، فإن حقيقة الوجود هي العدم الذي لم يستطع التعرف إليه فظل هاجسا يشغل التفكير الفلسفي، فالموجود موجود لكن حقيقته تكمن في الوجود الأصيل المرتبط بالحرية "ليغدو الوجود مرادفا للحضور". [9]

ومن الطرح الهيدغري إلى الطرح السارتري للهوية مع الفيلسوف الوجودي جان **بول سارتر Jean Paul Sartre "** الذي فرق بين ثلاثة أنواع للكينونة في كتابه "الكينونة والعدم": فكانت الكينونة في ذاتها الكينونة لذاتها الكينونة للآخر.

فأما الكينونة في ذاتها فهي الكينونة / الوجود المصمت غير الواعي الذي يشمل كينونة الأشياء والظواهر، التركيز على ظاهر الإنسان الذي لا يكشف عن الوجود الحقيقي لأن البحث في الوجود الحقيقي هو بحث في العدم نظرا لغموض الكائن" فالكينونة مرتبطة بالعدم.. واللا كينونة هي التي ستضع حدودا للجواب،إنها ذلك، خارج ذلك لا يوجد شئ".[10]

وأما الكينونة لذاتها فتتجلى في الشعور أو الوعي، إنها ذلك الكائن الذي يختار وجوده، إنه الذي عليه أن يكون ما هو عليه، هي الذات الحاضرة التي تختار أن تخرج من العدم، ومنه نفهم أن ما هو لذاته كان وجودا معدما في الوجود في الذات، ثم سعى إلى قلب المعادلة المصمتة لتصبح معادلة قائمة على الحركة والاختيار " فما هو لذاته كان ما كان عليه الكائن، الوجود في الذات ،ومنه فقد كان يتضمن كينونة الاخر في كينونته .. إنه ضمن وحدة قلبية مع ما هو في ذاته" [11] ولما كان الاخر هو تعديم أحاول نفيه بأن أرفض أن أكون ذلك الاخر فأنا بالضرورة أختلف عنه لأني أنفيه عن نفسي، فأنا أشكل ذاتي انطلاقا من نفي ذلك الآخر "وبالتالي فإن الغير الذي أتعرف إليه كي أرفض أن أكونه، إنما هو قبل كل شئ ذلك الذي يوجد بالنسبة إليه وجودي لذاته، إنني أشكل نفسي بحيث لا أكون أنا هو الغير " [12] وبتلك الصورة تنفتح الهوية على التعدد من داخل الوحدة ليتضح لنا أن الكائن الذاتي هويات في هوية واحدة.

وأما الكينونة للآخر فتشمل الأنا المنظور إليه في إطار علاقته بالآخر وبالذوات الأخرى، فلكي نعرف ذواتنا ينبغي وجود الآخر الذي يدفعنا للتعرف على أنواتنا "فهوية الكائن الذاتي متعلقة بكيفية تعاطيه مع الممكنات في علاقته مع ذاته ومع الغير" [13] ليغدو الآخر جزء من الأنا، فأنا هي كما يراني الآخر حتى وإن كان" الآخر هو الجحيم " [14] كما يذهب لذلك سارتر لتغدو الذات بذلك التصور رهينة الآخر مضطهدة من طرفه ولن تستطيع الانفلات منه لأن الحركة نحوه ومعه هي أساسية للتعرف على الذات.

إن الأنا من وجهة نظر الفلسفة الوجودية السارترية لا تتواصل مع الآخر الذي يشكل فعل تهديد لديها لأنه يحرمها من خصوصياتها، وإن تواصلت معه فهو تواصل براني تعاين من خلاله الشكل من خلال الرؤية المباشرة ولا تعاين الجوهر، وبذلك فإن تلك الأنا تمارس نوعا من القتل الرمزي لذلك الآخر.

لقد تبنى هؤلاء الفلاسفة المحدثون :"**Heidegger**،"**Sartre**"،" تصورا للهوية قائما على البحث في ثنائية الوجود والعدم، استحضار الأنا في علاقتها بالآخر تأكيدا على الصبغة الحوارية بين الذات والآخر فالأنا لا تستطيع أن تثبت إلا بوجود الاخر المختلف والمتمايز عنها حيث تصبح موضوعا بالنسبة إليه، فأساس الهوية ليس أن أوجد في هذا العالم لذاتي وإنما أن أنوجد للآخر وبذلك تغدو الهوية حسب التصورات الحداثية خروجا من أسوار الفكر المتقزم الذي أفرغها من محتواها وحصرها في قوالب ثابتة لا تتزعزع ،إنها ما بعد الحداثة الغربية التي قوضت الفكر المركزي والمتعالي و عملت على التأسيس لهويات حية ومتفاعلة مفتوحة على الآخر، على العدم وعلى اللا منتمي.

3. منحى التحول في شعر محمود درويش:

1.3من سؤال الهوية الى سؤال الكينونة:

من ذلك السؤال الفكري الذي شغل الفيلسوف **هايدغر** الى السؤال ذاته الذي شغل **محمود درويش** ولم يستطع الإجابة عنه، ففي ذات المنحى يطالعنا الشاعر الذي عهدناه في كامل دواوينه الشعرية يتغنى بالذات والهوية بقصيدته التي يتجاوز فيها سلطة المرجعيات وهيمنة القيم في محاولة لتشكيل شعري قائم على سؤال الكينونة، فرغم

اكتمال البحث عن الذات والهوية عنده إلا أنه يغير المنحى إلى نوع آخر من الشعر الذي ينخرط في فضاء المساءلة والعدمية، من الشعر الثوري إلى الشعر العدمي الذي يطرح العديد من علامات الاستفهام.

الشاعر الذي عهدناه في بداية مراحل شعره ثوريا، وطنيا، مسكونا بسؤال الهوية والبحث عنها، الهوية التي كانت معروفة في أزمنة النضال الكبرى، وما بطاقة هوية إلا دليلا على تلك الذات المترفعة التي تسعى لنيل حقها في الحرية والكرامة الإنسانية:

سجل انا عربي / ولون الشعر فحمي / ولون العين بني / وميز اتي / على رأس عقال فوق كوفيه/ وكفي صلبة كالصخر/ تخمش من يلامسها (15)

لقد كانت "بطاقة هوية" هي أسئلة الهوية العربية والمركزية في النتاج الشعري لدرويش، النشيد المردد على ألسنة الفلسطينيين تعبيرا عن الانتماء، فمن تلك البطاقة إلى حالة حصار التي صور فيها مأساة الذات العربي وحاول من خلالها الخروج بحلول لأزمة الإنسان العربي، فقد انطلق في القصيدة من تلك النصوص المفعمة بثقافات عديدة: ثقافة التهميش، الضعف، الاستبداد والتي هي ثقافات ضاربة في عمق **المجتمعات الغربية:**

السماء رصاصية في الضحى / برتقالية في الليالي / و أما القلوب فظلت حيادية مثل ورد السياج (16)

لقد نجح الآخر في زرع ثقافة الاستلاب، نجح في خلق ثقافة تنتج الضعف وعدم الاستقرار، وبذلك فإننا نعثر في نصوص الشاعر على انساق ثقافية سلبية متجذرة في الذات: تمزق على مستوى العلاقات الاجتماعية، تهميش إقصاء استبداد.

إننا محاصرون كحالة الحصار التي أبانها **درويش** في قصيدته، فقد نجح الآخر في احتلالنا واستعمارنا وقولبتنا، لقد نجح في خلق ثقافة استلابيه متجذرة في ذواتنا:

إنها انساق كانت لها القدرة الفائقة على إقصاء الوعي الفلسطيني خاصة والوعي العربي عامة، ومن هنا تأتي ضرورة مساءلة الثقافة العربية بضرورة التخلي عن الذات المعلولة التي سكنت بنية المجتمع العربي، ضرورة الخروج من دوامة التمسك بالماضي

والتراث حتى تتمكن هذه الأخيرة من بناء قوة داخلية قادرة على مجابهة التحديات من الآخر، ضرورة إحلال نظم جديدة حتى تستطيع الذات توسيع أفقها.

إن الدفاع عن الهوية لا يكون عن طريق انغلاق الذات وقوقعتها، إنما يكون بحوارها مع الآخر وإعادة نظرها في وضعها الوجودي والتاريخي والحضاري، حوارها مع ذاتها ومرجعياتها، ونقد رؤيتها لذاتها ورؤيتها للعالم. فالتاريخ هو الوعي بالتاريخ، والوعي بالتاريخ هو أساس الرؤية للعالم، والتحدي الرئيس للفكر العربي المستقبلي هو صياغة فلسفة جديدة للتاريخ تضع الأنا في علاقة حوارية مع نفسها وعلاقتها بالأخر، عندئذ تضع الأنا ذاتها في عجلة التاريخ.

لقد كان **محمود درويش** الشاعر المسكون بسؤال الهوية يقرأ التاريخ العربي من منظور الأقوى فالتاريخ هو من يكتبنا، والتاريخ هو من يسرد حكاية ضعفنا، التاريخ هو سردية القوة وتاريخنا العربي تاريخ يلفظ أنفاسه ان لم يكن قد لفظها، ولا مجال للانخراط في عجلة التاريخ الا بالتغذي من الانفتاح وتشخيص الواقع العربي واثارة الأسئلة المربكة في تاريخ الثقافة العربية، لأن "الثقافة هي قراءة الإنسان في علاقته بالعالم ولمكانته في المجتمع، هي نمط من المشكلات والحلول التي يبتكرها البشر لمشكلاتهم الوجودية". [17]

إن استمرار الوعي الذاتي للعرب جعلهم يعيشون خارج السياق التاريخي ، فقد أثبت التاريخ كما أثبت الشعر بدوره عن ذلك التغير في اتجاه القصيدة العربية: من الذات المكلومة الى الذات المتحاورة مع الآخر لأننا بحاجة الى مشروع نهضوي يتعامل مع صوغ الهوية بأفق رحب يتجاوز القوالب الإيديولوجية والانغلاق على الذات، فما تحتاجه الذات العربي هو نقد الثقافة و إعادة صوغها في ضوء المستجدات الطارئة، لذلك فسؤال اللحظة الراهنة يبحث في الحل الذي هو نقد بنية العقل العربي و تحولات الذات ونقد ترسبات الماضي و تفكيك الخطاب الثقافي، ولنا في مشاريع إعادة كتابة التاريخ العربي النموذج الأوفى لمحاولة الخروج من المآزق الفكرية التي تتخبط فيها الثقافة العربية مع **عبد الله العروي و الجابري** ومع **علي حرب** الذين دعت مشاريعهم الفكرية إلى العقلنة كخاصية مميزة لكل مشاريع التحديث في الثقافة العربية، وانطلقت تلك القامات الفكرية

من زاوية أنه لا يمكن للمجتمعات العربية تخطي حاجز التأخر ما لم تقتنع بمشاريع التغيير التي ترى في الحداثة الغربية أنموذجها المثالي، إنها تدعو للقطيعة مع كل المرجعيات الأصولية و المتعاليات الموروثة.

إنها معالم مرحلة يمكن أن نقول عنها بأنها مرحلة انتقالية، من العقل المحنط، العقل الممجد للمقدسات والثوابت إلى العقل الكوني الذي يتحاور مع المستجدات والطوارئ، ويعمل على تفكيك الهويات "عقل يقوم بمراجعة الممارسات مراجعة انتقادية تخصب عن إجراءات منهجية غاية في الأهمية فهو فعل تفكيك وتحويل للمقولات والهويات بصورة تتغير معها بنية الفكر وجغرافية المعنى. "[18]

إن أزمة فكرنا تتجلى في تلك الأختام المشمعة التي ختمت بها الثقافة العربية والمقدسات التي حجرت بها العقول لذلك وجب فضحها وتعريتها، فالحاجة ماسة لنقد العقول التي تتعامل مع الفرد بوصفه هوية مسبقة ومتعالية، علينا لكي نتجاوز محنتنا أن لا نعمل بالمنطق التقديسي المتعالي بل بمنطق النسبي والمتغير، ولأن الغرب ما يزال حاضرا في تفكيرنا ومناهجنا واستراتيجياتنا، لذلك فإن أي محاولة لإقصائه تكون إقصاء لنا نحن العرب، إنه قوة مقلقة داخل كياناتنا لذلك فالتعامل معه يكون عبر فكر يتحاور مع المستجدات العالمية التي صنعها الغرب نفسه وحسب ما أقرته المشاريع الفكرية .

لقد انخرط الشاعر في حمى السؤال الفكري الذي يبحث في أسباب التراجع والنكوص وحمى البحث عن الخلاص التاريخي الذي تحياه الذات، فقد تورمت الوطنية وتورم الخطاب الثوري المصاحب لها وبالتالي صار الاستناد الى انجاز مرتكزات بناء اخر قائم على المساءلة وترميم الذات انطلاقا من الاخر وذلك من خلال رؤى فكرية ناقدة، متطلعة الى كشف المعاني بحثا عن رفع الأقنعة، هي تلك الشروط التي وجب على الذات استجلاؤها عبر اعادة النظر في المسلمات الثقافية وكشف الحقائق التي تمارسها سلطة المرجعيات وضرورة الحوار الذي هو المطلب الذي وجب أن تسعى اليه الذات العربي، الحوار القائم على على تكريس علاقات التسامح واحترام الهويات وعدم المساس بهاوقد اكتسب العالم صيغة الحوار الثقافي الحضاري مع غوته الألماني الذي أدرك أن وحدة التفكير الإنساني ليس كيف نفكر وإنما كيف نتحاور و كيف نتقبل بعضنا البعض، هي

الدعوة إلى الحوار في إطار ثقافي كاد يقصي الآخر، فالحاجة إلى الحوار أضحت ضرورة ملحة في تاريخ الإنسانية، لكنه ليس الحوار المبني على أساس النزعة الإمبريالية وإبادة الخصوصيات الثقافية، بل هو الحوار المبني على حرية الاختيار واحترام الأنا لهوية الآخر المتمايز في اللغة والدين والعرق.

إننا نحن العرب نحتاج إلى تبني صيغ الحوار واحترام مضامين التسامح بعيدا عن تلك المؤامرات المنسوجة، ولأن الخلاص من الضغوط لا يكون إلا عبر قناة التواصل لأن الآليات التقليدية المعتمدة في الثقافة العربية كانت المسؤول عن تلك النزعات المرضية لتلك الثقافة وبنية العقل المشلول الذي يحكمها وبالتالي فالأولى بنا هو الانطلاق من هدم وتفكيك تلك النزعات التي شكلت أساس النزيف الثقافي المتمثل في الانغلاق ومصادرة الأحكام المسبقة عن الآخر والاتكاء على لغة الحوار المبني على نقد الذات أولا ثم نقد الاخر وهو ما عبر عنه الشاعر:

أيها الواقفون على العتبات ادخلوا / واشربوا معنا القهوة العربية / فقد تشعرون بأنكم بشر مثلنا (19)

يتواصل النتاج الشعري للشاعر ليبلغ مداه في الديوان الأخير" لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي" فمن سؤال الهوية إلى سؤال الوجود، لقد قام مشروعه الأخير من خلال تلك الأسئلة الوجودية اللا متناهية على إعادة النظر في المسلمات بناء على حياة جديدة قوامها تهديد المراكز وتعرية الأنظمة، وبالتالي استطاع أن يقدم رؤية منفتحة على نبذ التمركز حول الذات والرنو الى عالم قائم على الخوض في غمار الأسئلة الفلسفية الشائكة التي تسيرها الفلسفة الوجودية .

من أنا لأقول لكم / ما أقول لكم / وأنا لم أكن حجرا صقلته المياه / فأصبح وجها / ولا قصبا ثقبته الرياح / فأصبح نايا / أنا لاعب النرد / أربح حينا وأخسر حينا / أنا مثلكم أو أقل قليلا (20)

تبدأ عملية الاشتغال في هذا النتاج الشعري بتحليل فكري غايته الوقوف عند المكونات الأساسة للخطاب حيث قتل الهوية وقتل الخطاب ذي البعد الواحد، وهذا

الاشتغال الذي يوجهه الشاعر يصب في حقل الولادة بالصدفة الولادة العدمية والعناية بالهامش من أجل إحياء التفاصيل الغائبة والمصادرة فالذات التي كانت قطبا معروفا في شعر درويش أضحت سؤالا يفتح على الابتكار في عالم السؤال والمساءلة المفتوح على الآتي والمستقبل، وهو التوجه الجديد الذي عرفته القصيدة التي وجهت مسار النقد.

إن سؤال من أنا؟ والذي هو ليس سؤال هوية بقدر ما هو سؤال الكينونة، فالهوية التي عجزت عن احتضان العالم وعجزت عن الخروج بحلول لأزمة الانسان العربي هاهي تعاود أسئلتها لتقف عند ضرورة جلد الذات بالذات نفسها، لقد تأسس الخطاب على لازمة من أنا؟ والتي لا تقوم على تمجيد الذات والاحتفاء بها وإنما تقوم على التأسيس للذات الجديدة التي تسعى لترسيخ علاقة نقدية تتجاوز الذات إلى قتلها وإعدامها في فضاء المساءلة..

فمن أنا؟ هو السؤال المعبر عن القلق الذي يغلف الذات ويغلف الشعر والذي دشن له الفيلسوف **هيدغر**، فالرحلة تبدأ بالسؤال لتسكن عنده وفيه أسئلة وجودية أخرى حول الاحساس بالانتماء، فالشاعر وان كان يحاول صياغة مفهوم الكينونة التي ترتبط بالعدم فانه أيضا أراد أن يؤسس لعالم المصادفة / العدم ليواصل من خلاله إتمام معنى الكينونة فكانت تجربة متميزة للكشف عن القلق الوجودي.

وعبر إعدام الذات المحورية وميلاد الذات العدمية وكأني بالشاعر يرسل خطابه عبر نسق مضمر قوامه أن الفكر العربي لن يبلغ مداه إلا بتحرير الذات ومساءلة الأصول والمسلمات التي شمعت الثقافة العربية بعيدا عن تلك الامتدادات الإيديولوجية، وأن على الشعر أن يخوض في تلك الأسئلة الوجودية وأن يقترف مغامرة الذهاب بعيدا لتفكيك كل ما يعيق الفكر.

هو المنحى ما بعد الحداثي الذي دشنته القصيدة الدرويشية والذي أعلن موت الذات، التاريخ، القيم وبث الشك في كل ماهو يقيني، هو زمن الانخراط في مغامرة الأسئلة المعرفية الشائكة بعيدا عن سلطة الأصول والمرجعيات ودخولا في عالم المجاهيل، وهذا المنحى الجديد للذات هو الذي عبرت عنه القصيدة فهل فرضت المرحلة التاريخية ملامحها

على موقف الشاعر والمثقف العربي؟ إننا ومن خلال التساؤل نقف عند حدود الثقافة التي لطالما حصرت في أنها ثقافة المراكز، ثقافة الفلسفة الحداثية التي أبانت عن عجزها في تحقيق طموحات الإنسان وهذا التصور المركزي سرعان ما تعرض للنقد والمساءلة بعدما تأكد أن المشروع الحداثي مشروع لم يكتمل فكانت ما بعد الحداثة هي فلسفة تقويض المفاهيم المركزية وإحلال العدم محل الوجود وهو الأمر الذي يتواتر في القصيدة في محاولة شعرية قائمة على أساس قانون الصدف:

ولدت إلى جانب البئر/ والشجرات الثلاث الوحيدات كالراهبات / ولدت بلا زفة و بلا قابلة و سميت باسمي مصادفة / و انتميت الى عائلة مصادفة [21]

إن هذه الولادة بالصدفة، دور الصدف في تكوين الإنسان كل شيء بالصدفة: الولادة بلا أب وبلا أم هو التحدي الصارخ لقانون الهوية والتأسيس لقانون العدم مقابل قانون الوجود الذي أدى إلى الاغتراب عن العالم الذي غلبت عليه التقنية واختصر فيه الإنسان في بعدة المادي، وهذا التحول إلى أنا جديدة يوحي بتحول مسار المثقف العربي الذي أدرك لا جدوى السرديات الكبرى والايديولوجيات الأصولية وسعى لتجاوز الثوابت والتأسيس لمتغيرات تتجاوز سلطة المرجعيات.

ولما كانت هناك أزمة مسار حصاري في شعر الشاعر كان لا بد من رؤية فكرية قائمة على أساس النزوع إلى إقصاء الوجود بإحلال العدم الذي يحمل بذور الكفر بالتاريخ وفقدان الثقة بقدرة الإنسان على التغيير، وهذا الانتهاك المعلن لقانون الوجود يزعزع تلك المسلمات التاريخية والثقافية ليفجر أزمة في علاقة الإنسان بذلك العدم المسكون بالحيرة والقلق والخوف من الاتي والذي يتكرر في المقاطع الشعرية.

ويبلغ العدم مداه من خلال العنوان الذي يحيل إلى كون الإنسان مجرد حجر يقذف به أنه حجر النرد الذي ينتظر الحظ. ان الشاعر الذي عهدناه أكد انتماءه في أكثر من قصيدة نلقاه يسخر من تلك الأسئلة الكبيرة التي ال اليها البحث تأسيسا لكينونة جديدة لا يشكل الوطن مركزها بل يصبح القلق واللا شيئ و اللامنتمي هو المركز وبذلك يتم

التأسيس لتلك الذات المجردة الذات اللا منتمية، الذات اللا قصدية التي تقطع صلتها بكل فضاء اتصالي وتتخطى الرؤى والنواميس لتتصدر المشهد الثقافي .

فعبر هذا الطرح المعرفي لم يبق للمرجعيات السلطة في الاسهام في تفعيل المعرفة النقدية، وانما هي المرحلة التاريخية التي فرضت ملامحها على المثقف فكان صوغ القضايا والمفاهيم وفق معطيات يقدمها التاريخ الراهن، تاريخ التحولات القابلة للتشكيك والقراءة والتفكيك.

4.خاتمة

كانت هذه الورقة النقدية انخراطا في حمى السؤال الفكري عند الشاعر محمود درويش الذي استطاع في شعره أن يغير مجرى القصيدة العربية، فلا يمكن انطلاقا من المنظور الجديد والرؤية الجديدة أن نتحدث عن أنساق ثابتة ومرتكزات قارة عنده قد تنطلق من الهوية الثابتة (اللغة، المعتقد، الجغرافيا). وإنما تتنامى تلك الأنساق لتؤسس لعالم البحث عن الكينونة وتمجيدا للعبور للغيرية التي شكلت عمق الكتابة، وبذلك اختار الشاعر أن يسائل مأساة الهوية عبر شكل المحاورة الذي اتخذ رهانا ثقافيا مسكونا بالسؤال بين الذات ومحيط انتمائها.

5. الهوامش:

1-Denis Constant Martin :Lidentite En Jeu ,Pouvoirs,Identifications Mobilisations,Editions Karthala Paris,2010,P13

2- جليلة المليح الواكدي مفهوم الهوية، مساراته النظرية و التاريخية في الفلسفة، في الأنثروبولوجيا وفي علم الاجتماع، مركز النشر الجامعي،منوبة، تونس، دط، 2010،ص 19.

3 - المرجع نفسه: ص31.

4 -جان بول سارتر: تعالي الأنا موجود ترجمة حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، ط1، 1982، ص67 .

5 -جان بول سارتر: تعالي الأنا موجود ترجمة حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، ط1، 1982، ص67 .

6-يورغن هابرماس: العلم و التقنية كإيديولوجيا، ترجمة: حسن صقر، منشورات الجمل، ط1، 2003، ص 10.

7-يورغن هابرماس: العلم و التقنية كإيديولوجيا، ترجمة :حسن صقر، منشورات الجمل،ط1، 2003،ص 10.

8-مارتن هيدغر: التقنية: الحقيقة، الوجود، ترجمة: محمد سبيلا وعبد الهادي مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، دط، دت، ص42

9 -المرجع نفسه: ص87

10-جان بول سارتر: الكينونة و العدم،بحث في الأنطولوجيا الفينومينولوجية، ترجمة نقولا متيني،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،ط1، 2009، ص52.

11-المرجع نفسه: ص777.

12- المرجع نفسه: ص385.

13-ناصيف نصار: الذات والحضور، بحث في مبادئ الحضور التاريخي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2008، ص 109-110.

14-جان بول سارتر: الكينونة والعدم، بحث في الأنطولوجيا الفينومينولوجية، ترجمة نقولا متيني، ص98.

15-ديوان محمود درويش: دار العودة بيروت، ط 1، ص 74.

16-ديوان محمود درويش، حالة حصار، رام الله، ط 1 ،2002، ص 9 ،10.

17-أحمد دلباني: مقامات التحول، ص 72.

18-يوسف بن عدي: أسئلة التنوير والعقلانية في الفكر العربي المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 2010، ص178.

19- ديوان محمود درويش، حالة حصار، ص 18.

20- محمود درويش: الديوان الأخير: لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي، دار الرياض الريس، ط1، أذار2009، ص 21 .

21- المصدر نفسه، ص 21 .

*** *** ***